

المحاضرة الثالثة: دوافع وأهداف المستشرقين وسائلهم :

أ- دوافع وأهداف المستشرقين :

الافكار التي تبثها الكنيسة في عقول الاوربيين عن الاسلام لم تتوقف عند حد معاداة الاسلام بل اعتبرته دينا محرفا يستمد أصله من اليهودية والنصرانية، وأن علومه وافكاره في الاصل من علوم الاغريق، بل اعتبرته مسيحية في أسوء صورها أو مسيحية مشوهة، وبفضل انتشار هذه الافكار بين الاوربيين تنكر الاوربيون للإسلام صاحب الفضل في إخراج أوربا من العصور المظلمة.

تعتبر الكنيسة الإسلام أكبر عدو لها فقد جاء في فرض الكهنة في تاريخ بيزا « دين محمد الهمجي والسكير الذي من نصيبه جهنم عقاب له على سيئاته هو دين خدام الشيطان والمؤابيين الانجاس الذين يرددون آيات الرسول ويكثرون من التجذيف على ملكة السموات مريم »، كما أن الكنيسة ثم الاستعمار ساهما في تشويه الإسلام وحضارته وتشويه الإنسان العربي، ثم تركت المهمة بعد ذلك للإستشراق على حد تعبير مونتجومري وات مؤلف كتاب " فضل الإسلام على الحضارة " .

وقد كان الهدف الاول للإستشراق ديني فقد بدأ بنشاط الرهبان في مجال الترجمة ، ويذكر في هذا الاطار مصطفى السباعي أن الدافع الديني أهم دافع للمستشرقين، فقد كان هدفهم أن يطعنوا في الإسلام ويشوهوا محاسنه فوصفوا المسلمين باللصوص وسفاكو الدماء وأن سعيهم إنما هو لإرضاء ملذاتهم الجسدية ، فكان هدف الكنيسة هو التبشير وهنا يذكر يوهان فوك إن فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي حول انشغال الكنيسة بترجمة القرآن واللغة العربية ، فكلما تلاشى الامل بتحقيق نصر نهائي بقوة السلاح ، ويذكر للباحث محمد بن حمادي الفقير التمساني أن حملات التبشير النصرانية كانت أحد أسباب بداية الاستشراق.

ومع أن الغرب يمقت الكنيسة ويثور عليها حيث أن شعار الثورة الفرنسية كان " اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر راهب"، ومع أن السياسيين يمقتون رجال الدين ومع ذلك فنراهم يتعاونون معهم يشجعونهم على التبشير في الشرق بما يخدم مصالحهم. ومع أهمية الدافع الديني إلا أنه ليس الوحيد فهناك الدافع التجاري للترويج لبضاعته والحصول على امتيازات ومكاسب اقتصادية، والدافع السياسي ولعله هو الأخطر حيث أنه وبعد استقلال كل الدول الإسلامية فان الأوروبيون ظلوا على اتصال بالمفكرين والقادة السياسيين والصحافيين عن طريق الندوات والحفلات التي يقيمونها، كما أن السفارات أصبحت تضم ملحقين ثقافيين بحيث تعرف كل خبايا البلد .

وهناك الدافع الاستعماري فقد اتجه المستشرقون للتعرف على البلاد من خلال دراسة عادات وعقائد وأخلاق المجتمعات والتعرف على مختلف أقاليمها وثرواتها لمعرفة نقاط القوة والضعف، وعندما تم لهم ذلك راحوا يعملون على إضعاف المقاومة، بإيهام الناس أن الاستعمار قضاء و قدر فيشجعوا التصوف والزوايا وسعوا لإصدار فتاوى تدعو إلى الاستكانة والاستسلام لقضاء الله وهذا ما نلمسه في الدور الذي قام به ليون روش في الجزائر لصرف الناس عن مساندة ثورة الامير عبد القادر .

واخيرا هناك الدافع العلمي بالنسبة للذين لم يشتركوا في مخططات الكنيسة والاستعمار فإن دافعهم علميا بحث وقد بذلوا قصارا جهدهم في فهرسة المخططات والكتب وهؤلاء استقادت منهم الدول الاسلامية حيث كان تأثيرهم إيجابيا، فلم يكن جميع المستشرقين يخدمون أغراض التبشير أو الاستعمار بل هناك منهم من كان حياديا وكان غرضه العلم وهناك من أسلم.

قد يتساءل المرء عن السبب الذي يجعل هؤلاء الباحثين يدرسون الاسلام كعقيدة ، فهم لا يؤمنون به ولا يبحثون عن الحقيقة من وراء دراستهم للإسلام، وليس

هدفهم هو العلم وإلا لاختصوا بمجال آخر مثلما فعل غيرهم، لكن علماء اللاهوت هؤلاء ما فتؤووا يبحثون عن كل نقيصة ومطعن في الاسلام .

تتلاقى دوافع الاستشراق مع أهدافه فإذا كان الدافع دينيا كان الهدف هو إخراج المسلمين عن دينهم فإن أمكن تنصيرهم فذاك المقصود وإلا فإبقاءهم بلا دين مطلقا وهذا يحقق لهم منافع ومصالح اقتصادية وسياسية واستعمارية، فقرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كامبردج عام 1636 نص صراحة على خدمة هدفين أحدهما تجاري والثاني تنصيري» ... نهدف إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الاقطار الشرقية وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون في ظلمات» .

وإذا كان الدافع استعماري فهو يهدف إلى السيطرة على العالم الاسلامي طمعا باستغلال الارض واستعباد الناس والسيطرة على كل شيء، وإذا كان اقتصاديا فهو يهدف إلى تحصيل منافع اقتصادية واستغلال الارض والسكان لخدمة الاقتصاد الغربي.

نلاحظ في هذا الاطار أن أهداف الاستشراق تتلاقى مع أهداف الاستعمار والتبشير مما يجعل منها وجهات متعددة لعملة واحدة ، ولقد قال الله تعالى في كتابه العزيز « وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ... » سورة البقرة ، الآية 120.

يذكر مصطفى السباعي أن هدف المستشرقين هو طرح الشرق أمام الغرب بصورة مشوهة، لتكوين صورة سيئة عن العرب والمسلمين في ذهن الغربي المعاصر، لحمايته من أن يرى نور الإسلام، فيؤمن به، ويحمل رايته ويجاهد في سبيله.

- هزيمة المسلمين هزيمة روحية وفكرية، وذلك بالقضاء على روح الاستعلاء الإيماني والاعتزاز بالاسلام في نفس المسلم، وإذابة شخصيته الإسلامية عن طريق

غسل دماغه شيئاً فشيئاً، بأسلوب ماكر يعتمد على إخفاء النوايا الحقيقية والظهور بمظهر برئ لطيف، وقد اشتركت في هذا الهدف مع الصهيونية والشيوعية.

- زرع بذور الشك في أهم دعائم الحضارة الإسلامية والتشكيك في النبوة والرسالة.
- هدم بنیان الشريعة الإسلامية ، فقد شنّوا حملة شعواء على العقوبات والحدود الإسلامية: من قصاص، وقطع، ورجم، وشنّوا عليها ووصفوها بالهمجية والوحشية، وقد علموا مدى مكانتها وعظم وظيفتها في المحافظة على مجتمع إسلامي متماسك سليم من الآفات والأمراض.

- تدمير المجتمع الإسلامي وطمس معالمه بالتركيز على حياة المرأة المسلمة، فصوروا حياتها في ظل الإسلام بصورة الكبت والظلم والانحطاط، واعتنوا كثيراً بتشويه الحجاب ، فنشطوا لجر المرأة المسلمة إلى ميادين الفوضى والانحلال من أجل هدم بناء المجتمع الإسلامي.

تلك كانت الدوافع الحقيقية والنوايا الخفية وراء عناية الأوربيين بالدارسات الإسلامية، وفي ذلك يذكر الامام محمد الغزالي أن الاستشراق كهانة جديدة تلبس مسوح العلم والرهبانية في البحث، وهي أبعد ما تكون عن بيئة العلم والتجرد، وجمهرة المستشرقين مستأجرين لإهانة الإسلام وتشويه محاسنه والافتراء عليه"، فالاستشراق اثر في الفكر الفلسفي العربي والإسلامي بحيث لا يوجد مجالاً من مجالات دراسة الشرق وعلومه خالياً من أبحاث المستشرقين، ويذكر في هذا الاطار إدوارد سعيد أن المستشرقين نشروا عن الاسلام والمسلمين فكرة مغلوبة وأنهم يصفونهم بأبشع الصفات وأنهم غرسوا ذلك في أفكار الأوربيين ونجدها اليوم مجسدة في أفلام السينما .

ب- وسائل الاستشراق :

استعمل بعض المستشرقين وسائل دنيئة للوصول إلى أغراضهم خاصة منهم أولئك الذين خدموا الغرض التبشيري أو الاستعمار، ونسوق هنا قصة ليون روش مع

الامير عبد القادر، فقد سمي نفسه الحاج عمر والتحق بخدمة الامير، ورافقه مدة طويلة ادعى خلالها أنه اعتنق الإسلام، ولما قامت الحرب بين الأمير وفرنسا انشق عنه والتحق بالسلطة الفرنسية، فكلفه الجنرال بيجو الحاكم العسكري للجزائر، بالسفر إلى تونس ومصر والحجاز حاملاً فتوى تدعو الجزائريين إلى قبول الحكم الفرنسي مقابل أن يحترم هذا الحكم دينهم وعاداتهم وتقاليدهم .

وهو يلخص في كتابه " ثلاثون سنة في رحاب الإسلام " استخفاف المستشرقين بعقول المسلمين حيث يذكر « واني قد تمكنت من إغواء بعض هؤلاء الشيوخ في القيروان والإسكندرية ومكة، فكتبوا إلى المسلمين في الجزائر يفتونهم بوجوب الطاعة للفرنسيين، وبأن لا ينزعوا إلى ثوره، وبأن فرنسا خير دولة أخرجت للناس ومنهم من افتى بأن فرنسا دولة إسلامية أكثر من الدولة العثمانية، وكل ذلك لم يكلفني سوى بعض النقود الذهبية» ، وبعد أن عاد إلى الجزائر نشر هذه الفتوى وكان قد ساعده بعض من شيوخ الزوايا منها محمد الصغير شيخ التيجانية، عندئذ كتب الأمير عبد القادر رسالة عنوانها "حسام الدين لقطع شبه المرتدين" ونشرها سنة 1843 تنقض هذه الفتوى.

وتلك هي الحال الذي وصله المسلمون من الوهن والذي استغله المستشرقون في الكيد للإسلام في غفلة من علماء ورجاله.

ومن أبرز وسائلهم أيضا الغزو الفكري حيث استغلوا انبهار المسلمين

بالحضارة الغربية في نشر الثقافة الغربية، فيأخذ المسلمون من الحضارة الغربية ما يمكن أن تبعدهم عن جذورهم، فسلح التغريب من أخطر الاسلحة التي إستخدمها الغرب ضد الشرق وقد اضطلع المستشرقون بهذه المهمة.

وبسبب السيطرة الاستعمارية بدأت المؤثرات الغربية تتدفق على البلاد الإسلامية حتى غدا تقليد الغرب والتشبه بأخلاقهم وأسلوب معيشتهم واقتباس أفكارهم وآراءهم الاجتماعية والسياسية ، أكبر عوامل التبدل والانقلاب في العالم الإسلامي، وقد ثبت

في عصرنا ما اخبر به الرسول (ص) ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ. شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ. حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ صَبٍ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ «فَمَنْ؟» صحيح البخاري ، رقم 3456.

من أبرز الأمثلة على دور الاستشراق في نشر التغريب ما حدث في تركيا في عهد مصطفى كمال أتاتورك، فعندما قام بدعوته إلى تغريب تركيا حاضرة الخلافة، أخذ المستشرقون يتهمون الإسلام كدين بأنه سبب انحطاط الشعوب الإسلامية ، وقوي نشاط المبشرين للمسيحية في العالم الإسلامي، فقد ساند الاستشراق كل خطوات أتاتورك بالقضاء على أي صلة لتركيا بالشرق، بنشر اللغة التركية بالحروف اللاتينية ومنع العربية والفارسية ونشر الثقافة الغربية في تركيا، فقد قاموا بأبحاث تاريخية ونظريات في فقه اللغة التركية تشهد بتأصيل اتجاهه التغريبي، فساندوا الأفكار القومية الطورانية لأتاتورك، والأصول المشتركة للغات الأوربية مع التركية وحاول المستشرقون إثبات صلة الحثيون بالشعوب الهندو- أوروبية (الحثيون هم أصحاب اول حضارة ظهرت في الاناضول وكانت معاصرة لمصر الفرعونية).

وحاول المستشرقون ضرب العقيدة الاسلامية وبث الشكوك حول صحة رسالة الاسلام فمن وسائلهم في التشكيك بصحة رسالة الرسول (ص) ومصدرها الإلهي، إنكار النبوة و الادعاء أن الدين الإسلامي مستوحى من اليهودية والنصرانية، والتشكيك في صحة الأحاديث النبوية وفي الفقه الإسلامي، وفي قدرة اللغة العربية على مواكبة التطور العلمي، وفي قيمة التراث الحضاري الإسلامي وأنه منقول من الحضارة الرومانية واليونانية، والسخرية من بعض الأحكام الدينية، كدعوى عدم مناسبتها لوقتنا الحاضر، وغير ذلك من مزاعم ذات أبعاد خطيرة.

ومن الادوات التي استعملوها لتحقيق أغراضهم:

- تأليف الكتب في موضوعات منها القرآن الحديث والفقہ والتاريخ الاسلامي وإصدار المجلات لنشر بحوثهم
- إرساليات التبشير التي تقوم بأعمال خيرية في مجالات إنسانية مختلفة في الظاهر .
- إنشاء جمعيات ومدارس ومؤسسات من أجل العمل الخيري والاحتكاك مع الشباب في العالم الاسلامي.
- إلقاء المحاضرات في الجامعات والهيئات العلمية ومقالات في الصحف المحلية .
- عقد المؤتمرات لإحكام سيطرتهم ومناقشة الأفكار الجديدة .
- التركيز على الدعوات الهدامة والافكار الخاطئة والفرق الضالة والدفاع عنها والإشادة بها فنجدهم يركزون بحوثهم على المتصوفة والشيعية والخوارج، الوقوف عند الحوادث التاريخية التي تمثل انتكاسات أو ثورات أو أزمت مر بها العالم الاسلامي وكأنهم إنما يبحثون عن الطعن في الاسلام .